المصطلح السيميائي بين الفكر العربي و الفكر الغربي

الأستاذة : آسيا جريوي
كلية الآداب و اللغات
جامعة محمد خيضر- بسكرة (الجزائر)

ملخـــص:

لقد كان للمصطلح (السميائي) بوادر وإرهاصات في التفكير العربي والتفكير الغربي حيث ظل المصطلح عند الإغريق والعرب القدامى والمحدثين والأوربيين في فوضى من المفاهيم غير محددة الحقول، ، وعليه كانت هذه الدراسة لتحديد المصطلح عند الغرب ثم الوقوف على اختلاف الترجمة للمصطلح عند العرب المحدثين في دراساتهم السيميائية ثم تحديده عند الغربيين الذين اختلفوا في ضبط المصطلح فتعددت المصطلحات بينهم في السيميائيات، فهل نقول سيمويولجيا أو السيمانتيك أو السيمياء؟

Résume :

Dans la pensée humaine le terme (sémiotique) se présente confus et indéterminé.

Cet article a pour but de déterminer le sens de ce terme plus que possible à travers l'acte traductif afin de distinguer nettement la différence entre sémiotique, sémiologie et sémantique.

يعد الحديث عن المصطلح النقدي في الدرس العربي المعاصر مسألة هامة أمام الناقد والباحث العربي في فهمه وإدراكه لمدلول المصطلح في الحقل النقدي،باعتباره المفتاح لفهم الإجراء النقدي لتحليل النصوص العربية، وكونه الرسالة التي تصل بين الفكر الغربي والفكر العربي.

وتبقى إشكالية التبعية والترجمة وفهم المعنى أمام تعددية المصطلح وتطوره، والبحث عن توحيده من المسائل الهامة في إشكالية المصطلح.

ويعد المصطلح القناة التي تصل بين المتكلم والمتلقي فهو الدال العامل لمدلوله؛ وعليه فهو عبارة عن «كلمة أو مجموعة من الكلمات تتجاوز دلالتها اللفظية والمعجمية إلى تأطير تطورات فكرية وتسميتها في إطار هين تقوى على تشخيص وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات هينة، والمصطلح بهذا المعنى هو الذي يستطيع الإمساك بالعناصر الموحدة للمفهوم، والتمكن من انتظامها في قالب لفظي»[1]، ولعل من المصطلحات النقدية البارزة في الساحة النقدية مصطلح السيمياء الذي عرف «فوضى مصطلحية كبيرة جدا وأخذ زوايا متعددة حتى وإن أخذ مكانته كمنهج نقدي له وجهاته في معالجة النصوص الأدبية، خاصة بعد أن تأكد فشل المشروع البنيوي الذي انغلق على نفسه غير سامح لها بالتجول في فضاءات النص الخارجية، وإن كانا المصطلحان الشائعان لعلم العلامات هما مصطلح (Sémiologie) الفرنسي، و مصطلح (Sémiotics) الانجليزي فإننا لا نعد تعددية دوالية أخرى له».[2]

ومنه سنتطرق إلى لمحة تاريخية لمصطلح السيمياء وكيف كانت بوادره في الفكر العربي والفكر الغربي، وهل هناك تداخل في بدايات مفهوم السيمياء، وماذا عن إشكالية الترجمة وتعددية المصطلح عند العرب المحدثين؟!.

1. بوادر السيمياء في التراث العربي القديم:

عرف التراث العربي القديم دراسات مختلفة في العلوم والمباحث المعرفية المتباينة، ومنه تؤكد جل الدراسات أن العرب القدامى «قد عرفوا ما يسمى اليوم بعلم السيميولوجيا وإن كانت إشاراتهم مبعثرة ومتناثرة في أحضان علوم متنوعة كعلم النحو، وعلم البلاغة وعلم التفسير وعلم التصوف وغيرها، وإذا كان الأمر كذلك فإننا اليوم لفي أشد الحاجة إلى اكتشافها وتصفيتها من الشوائب الأخرى لأنها كالمعادن النادرة لا توجد إلا وهي مختلطة بالتراث، وتأبى إلا أن تكون كذلك، وما علينا إلا استعمال مفاتيح وآليات وإجهاد عقولنا لنيلها، وحقا فتراثنا العربي قد خلف أفكارا سيميائية عميقة وقيمة لا تنتظر إلا التصفية والترتيب لنحصل على سيميائيات بأصول وقواعد عربية خالصة، وليس هذا الكلام تعصبا منا للتراث وإنما هي الحقيقة»[3]، فالسيميائية كانت من اهتمامات العرب قديما ضمن دراساتهم المختلفة كالبلاغة وعلم الدلالة وعلم اللغة والفلسفة. ومنه سنحاول الوقوف على مصطلح (السيمياء) بين المفهوم اللغوي والاصطلاحي في التراث العربي القديم.

1.1. المفهوم اللغوي:

لقد ورد مصطلح (السيمياء) في معجم لسان العرب لابن منظور، وفي مادة (س، و، م) نحو قوله: « السيمة والسّمياء العلامة، وسوّم الفرس جعل عليه السّيمة ويقول الجوهري السُّومة بالضم العلامة، تجعل على الشاة»[4]، وقد ورد التنزيل العزيز يقول تعالى:[5] ***(تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)*** وقوله: ***(تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً)***، [6]، إذ ورد مصطلح *"السيمياء"* بمعنى *"العلامة" في القرآن* الكريم.ويرد في لسان العرب قول الراجز:[7]

غلام رماه بالحسن يافعا له سيمياء لا تشق على البصر

فالسيمياء في البيت الشعري بمعنى العلامة كما نجد تقاربا في المفاهيم والمصطلحات بين اللغة العربية واللغة الغربية، حيث يمكن أن ينتقل مصطلح (السيمياء) من اللغة اليونانية ويخضع لقوانين اللغة العربية، وقد يكون العكس؛ ذلك أن (سيمياء) العربية تشبه (Semiotic) الغربية إذ يشتركان في ثلاثة حروف.[8]

إن كلمة السيمياء العربية التي تقابل السيموطيقا أو السيميولوجيا عند الغربيين كلمة عربية أصلا وفرعا ومولدا، بدليل الاشتقاقات المختلفة التي جاءت بها من جهة، وكثرة النصوص الفصيحة الرسمية التي وظفت فيها دالا ومدلولا التي أشارت إلى مفهوم العلامة بشكل مباشر أو من خلال مقاربة المعنى من جانب آخر وذلك ضمن الدراسات والأبحاث المختلفة ، ويشير عبد الجليل مرتاض إلى المفارقة الغريبة في البنية الصوتية والفنولوجية لكلتا الكلمتين: العربية (سيمياء)، والإغريقية (سيمون)؟، إن الكلمة الغربية مؤلفة من: صامت (س) + صائت (ميم) + صائت (ألف)+ صامت (همزة) أي: *c+v+ cc+ vc، بينما الكلمة الإغريقية مؤلفة من: صامت (سين) + صائت (قريب من الياء) (ميم)+ صامت (ياء)+ صائت (واو)+ في النهاية نون (صامت) لا يلفظ؛ أي: c+v+cc+v+c[9]، ومثلما توجد هذه المفارقة الغريبة في البنيتين: الصوتية والفونولوجية توجد مفارقة أخرى أشد عجبا، حيث الدال الصوتي المتشابه فيهما يدل على مدلول متشابه أيضا هو: العلامة، ومنه فالكلمة العربية والإغريقية كلتاهما أخذتا من لغة قديمة واحدة مشتركة، إن لم تكن إحداهما أخذت من الأخرى، وهذا الأمر لا يتعلق باللغة العربية فقط ، لأن الكلمة الإغريقية قديمة، ومثلها العربية، بل يتعلق أيضا بالسامية الأم، أو حتى باللغة (النُّوحية) البعيدة التي انبثقت منها السامية والحامية، ومن ثم فلا توجد لغة سامية تدعي أو يمكن لها أن تدعي الأصالة.[10] ولعل هذا ما يوضح التداخل بين اللغات في كثير من المفاهيم و المصطلحات.

2.1- المفهوم الاصطلاحي:

لقد اختلفت الدراسات والبحوث حول المعنى والدلالة بمختلف توجهات الباحثين، والدارسين من العرب القدامى أصوليين وبلاغيين ولغويين، و مناطقه و فلاسفته، ومتصوفه، وحتى العرب المحدثين، إذ «كان البحث في دلالة الكلمات من أهم ما لفت اللغويين العرب وأثار اهتمامهم، وتعد الأعمال اللغوية المبكرة عند العرب من مباحث علم الدلالة، مثل: تسجيل معاني غريب في القرآن الكريم و: الحديث عن مجاز القرآن، والتأليف في (الوجوه والنظائر) في القرآن، ومثل: إنتاج المعاجم الموضوعية، ومعاجم الألفاظ وحتى ضبط المصحف بالشكل يعد حقيقة عملا دلاليا، لأن تغيير الضبط يؤدي إلى تغيير

وظيفة الكلمة، وبالتالي إلى تغيير المعنى».[11] وهو من القضايا التي اهتم بها العرب ولعل من بين الدراسات الدلالية في الدرس العربي نذكر:

- محاولة "ابن فارس" الرائدة في معجمه: (المقاييس) حيث ربط المعاني الجزئية للمادة بمعنى عام يجمعها.
- محاولة "الزمخشري" الناجحة في معجمه (أساس البلاغة) التفرقة بين المعاني الحقيقية والمعاني المجازية.

وقد كان من الدرس الدلالي اهتمامات الأصوليين، وعلماء الكلام، والفلاسفة المسلمين إذ تناولت بحوثهم موضوعات مثل: دلالة اللفظ، ودلالة المنطوق، ودلالة المفهوم،و تقسيم اللفظ بحسب الظهور والخفاء والترادف، والاشتراك، والعموم، والخصوص، والتخصيص، والتقييد[12] ،وهذه من المواضيع التي كانت محط اهتمامهم آنذاك.

وكما نجد «دراسات وإشارات كثيرة للمعنى في مؤلفات "الفرابي"، و"ابن فارس"، و"ابن رشد"، و"ابن حزم"، و"الغزالي"، و"القاضي عبد الجبار... وغيرهم"[13]، إذ اهتموا بالمعنى والبحث في بعض البحوث كما في «مخطوطة تنسب لـ: (ابن سينا) تحت عنوان "كتاب الدر النظيم في أحوال التعليم"، نسخها "أحمد إبراهيم بن مساعد الأنصاري"، ورد في المخطوطة فصل تحت عنوان (علم السيمياء) (...)، وكذلك "ابن خلدون" خصص فصلا في مقدمته لعلم أسرار الحروف، فعلم أسرار الحروف- هو كما يقول- المسمى بالسيمياء...».[14]

ويشير "الجاحظ" إلى المعاني والألفاظ فيقول: « حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير ذلك، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني (...) خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال، تسمى نصبة والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقتصر على تلك الدلالات، فهو هنا يفضل اللغة على باقي العلامات الأخرى (...)، ومسألة البيان عنده مرادف للدلالة وهو كل ما يكشف الغموض سواء أكان لغة أو غير ذلك، لذلك نجده يقول: (ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه، وإن كان صامتا وأشار إليه، وإن كان ساكتا)، فهذه هي الدلالة

كل ما يوصل إلى معنى معين، ومعروف أن السيميائيات تبحث في أنساق الدلائل كلها».[15]

ولم يتوقف الاهتمام بالسيمياء في دراسات علم الدلالة بل نجد«اهتمامات البلاغيين التي تمثلت في دراسة الحقيقة والمجاز (...) وفي نظرية النظم "لعبد القاهر الجرجاني"»[16] في القرن الخامس إذ تكلم عن اللفظ والدلالة والاختيار والتأليف في الكلمات لضبط المعنى في السياق وتحدث "الجرجاني" في دلائل الإعجاز عن المعاني النفسية والترتيب، وكيفية إسهام هذه الأشياء في تغيير الدلالة كما أشار إلى أن الدلالة لا تأتي من الجانب الشكلي المكتوب فقط، وإنما للسياق دور مهم جدا في الكشف عن الدلالات الخفية، كما تحدث عن التحول الدلالي بحيث تتحول العلامة في سياق معين إلى علامة ذات دلالة مركبة يتحول مدلولها إلى دال باحثا عن مدلول آخر، وهذه خاصية تمتاز بها العلامة اللغوية دون غيرها من العلامات الدالة الأخرى، وذلك تحت ما يعرف بالمجاز، والاتساع، والتضاد، وكلامه هذا هو بالضبط ما يتحدث عنه الحداثيون تحت مصطلح المعنى كما عند (أوجدن)، و(ريتشارد)، والأولانية والثانيانية والثالثانية عند "بورس".[17]

وكما اهتم العرب القدامى بعلم الدلالة حيث «شاع عند اللغويين والأصوليين، والفلاسفة وفقهاء اللغة العرب بأن الأشياء متعددة للوجوه، فهي موجودة في الأعيان وموجودة في الأذهان وموجودة في اللسان وكل وجود له آلياته وطبيعته الخاصة فالأول دال على المرجع وهو ما يحدد الوجود الموضوعي للشيء، ويشير الثاني إلى المدلول أي المفاهيم، أما الثالث فيحيل إلى الدال وهو أداتنا الأولى في التعرف على العالم الموجود خارج الذات المدركة»[18]، ففي تحديدهم لدلالة اللفظ نظروا إلى الأشياء من ثلاثة زوايا، المرجع والدال والمدلول، وهو تقسيم ثلاثي للعلامة يماثل تقسيم "بورس".

ويمكن أن نرجع «أصول علم السيمياء الحديث وبداياته إلى بداية الفلسفة وبالفعل فإن معظم المذاهب والتيارات الفكرية الكلاسيكية قد تعرضت لعلم السيمياء بشكل أو بآخر وفق أغراضها المنهجية، وليس من مبالغة في القول إن الفكر العربي استطاع أن يتوصل في مرحلته المتأخرة إلى وضع شبه نظرية لهذا العلم سبقت الأبحاث المعاصرة إلى هذا المجال،

إنّ تأثر العرب بالمدرستين اليونانية المدرسة "المشائية"، والمدرسة الميغارية "الرواقية" لا يقبل الشك كما يبدو عبر المفاهيم والمصطلحات الشائعة في علم الدلالة عندهم، ومن الطبيعي أن يكون أوائل الفلاسفة العرب "كالفرابي" و"ابن سينا" قريبين جدا من المعطيات اليونانية»[19]، وكان تقسيم العرب للعلامة قريب جدا من تقسيم "بورس".

وهذه المسألة تكلم عنها المتصوفة و"ابن عربي" خاصة في نظرتهم الشمولية للكون "فابن عربي" «يتعامل مع حروف اللغة كما يتعامل مع كل الموجودات، ويجعل: مراتب الوجود الثاني والعشرين تساوي عدد الحروف الثمانية والعشرين: وينظر إليها من خلال ثنائية الباطن والظاهر، وهذه النظرة سيطبقها علم الكلام (دلالة الكلمات لها جانبان: جانب دلالتها الإلهية القديمة، وجانب دلالتها البشرية الحادثة، الدلالة في الحالة الأولى من حيث الباطن ذاتية بمعنى الدال هو المدلول أما الدلالة في الحالة الثانية فهي دلالية عرفية وضعية اعتباطية»[20]، وهذه المراتب للوجود عند "ابن عربي" تماثل مقولات "أفلاطون" في الوجود، و"بورس" في الدلالة فما يصطلح عليه "أفلاطون" الوجود الطبيعي (المثال)، وعمل الصانع، وعمل الصور، يصطلح عليه "ابن عربي" بالوجود لا بشرط، ووجود بشرط شيء، ووجود بشرط لا شيء يصطلح عليه "بورس" بـ: الأولانية، والثانيانية والثالثانية، «والفرق بين كل من "ابن عربي"، و"بورس" هو أن "بورس" حاول أن ينقل النموذج الصوفي للوجود ليطبقه على عالم الدلائل، أي أنه حاول دراسته من الفلسفة إلى السيموطيقا بينما احتفظ "ابن عربي" بالنظام الفلسفي الصوفي وترك نظام الدلائل يحتل في مكانته الخاصة دون عزله عنه».[21]

فقد استفاد بورس من المفاهيم الفلسفية قي دراسته للسيمياء أما ابن عربي فكان تركيزه على الجانب الفلسفي الصوفي. أما في مسألة "الإشارة"القائمة على وجود الدال والمدلول «فقد حددها "أبو حامد الغزالي" على أربعة محاور هي: (الوجود العيني، والوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الكتابي)، فالشيء له وجوده العيني كالشجرة نابتة في الأرض ثم يكون لها وجود ذهني، وهو أن ينشأ لها في ذهن الإنسان صورة تقوم في الذاكرة ويأتي الوجود اللفظي، وهو كلمة (ش ج ر ة) ثم يتحول الوجود اللفظي إلى كتابة»[22]،

و حركة الإشارة هذه شرحها "أبو حامد الغزالي" دون أن يطلق عليها مصطلح "الإشارة"، وهي العلامة اللغوية عند "فرديناد دي سوسير".

وعلى هذا الأساس «فإن تشبع علماء المسلمين على اختلاف تخصصاتهم العلمية ومنطلقاتهم الفكرية بالثقافة الدينية جعل الإطار الذي دارت فيه أبحاثهم الدلالية لا يكاد يخرج عن اعتبار الكون دالا على خالقه، يتساوى في ذلك المعتزلة، والمتصوفة وغيرهم، فالمعتزلة يرون أن الله نصب أمام أعيننا العالم دلالة، وعلامة على وجوده وقدرته، أما المتصوفة نجدهم يتحدثون عن كلام الله اللغوي في القرآن وكلمات الله المنشورة في رق الوجود، ويوازن بين الكلام اللغوي، والكلام الوجودي، وضرورة قراءتهما معا وفهم كل منها في ضوء الآخر»[23]، وعليه كان البحث في دلالة الألفاظ عند العرب مختلفا عند الأصوليين واللغويين وعلماء البلاغة والمنطق.

3.1. المصطلح السيميائي وإشكالية الترجمة عند العرب المحدثين:

إن مهمة تحديد مصطلح (السيمياء) وإعطاء مفهوم له في الدراسات العربية الحديثة «من الأمور الصعبة جدا، لهذا السبب تعددت الآراء في تعريفه وفي تحديد مصطلح دقيق له، سواء في اللغات الغربية أو في اللغة العربية»[24]، لقد عرف هذا العلم فوضى مصطلحية كبيرة، ولم يبق المصطلح مختلفا بين لغة ولغة أخرى بل حتى في اللغة الواحدة إذ «يشير (كريستال ديفيد) في اللغة الانجليزية وحدها (seméiology, seminasiology, semiology, semiotics, significs) أما "غريماس" فيشير إلى أهم المصطلحات المتقاربة لهذا المفهوم وهي في رمتها تقبع في المعاجم السيميائية المختصة أبرزها: (sémiologie, semiotique, semanalyse, sémasiologie, séméiologie)، ورغم هذه التعددية الدوالية للمصطلح الغربي إلا أن أشهرها على الإطلاق هما (Sémiologie) الفرنسي، و(Semiotics) الانجليزي».[25]

وقد عرف «مصطلح (السيميائية) المنقول من المصطلح الغربي الحديث (sémiologie) و(sémiotoque) المشتق من اليونانية (sémion) بمعنى الدليل، عددا كبيرا من الألفاظ في الخمسين سنة الأخيرة في اللسانيات العربية الحديثة منها: علم الدلائل،

علم العلامات، علم الدلالة، علم المعنى، علم دراسة المعنى، علم العلاقات، علم الإشارات، علم الرموز، علم الأدلة، الأعراضية، العلامية، علم السيمياء، السيميائيات، بالإضافة إلى: السيميولوجيا والسيمالوجيا، والسيموطيقا والسيميوتية والسيماتيك، ونلحظ أن هذه المصطلحات جاءت كلها بدلا من مصطلح (sémiologie) و(sémiotique) غالبا وأحيانا للدلالة على مصطلحي (sémiologie) و(sémiotique) »[26]، وبذلك عرف المصطلح فوضى أثناء نقله إلى العربية وهذا ناتج عن عدم الفهم والوعي الجيد للمصطلح وقد يكون ذلك بسبب محاولة تطويعه ليتماشى وسلاسة اللغة العربية، كما قد يرجع ذلك إلى تعصب كثير من الباحثين للتراث فيحاولون إيجاد مقابل له في تراثنا العربي.[27]

إلا أن المصطلح يبقى كمفهوم يحاول الباحث العربي ترجمته وإدراكه وفهمه والبحث عن ما يقابله أو يقارب معناه في اللغة العربية. ومن الجهود العربية الحديثة في الوطن العربي للسيميائية المبكرة منذ منتصف السبعينيات والتي تأسست خلال الثمانينات في المغرب العربي نجد "عبد الملك مرتاض" مثلا يستحسن مصطلح (السيميائية) وكذا "رشيد بن مالك" يستخدم مصطلح (سيميائية) من خلال مؤلفه: (السيميائية أصولها وقواعدها)، وكذا كتابه: (مقدمة في السيميائية السردية)، ويترجم "الطيب بكوش" المصطلح إلى الدلائلية، أما "ناصر حامد أبو زيد"، و"سيزا قاسم" فيستخدمان مصطلح السيميوطيقا في كتابهما: (مدخل إلى السيموطيقا: حول بعض المفاهيم والأبعاد)، وعليه فقد تعددت وتباينت الآراء من باحث إلى آخر حول مصطلح (السيميائية) (sémiotique)، وتسمية (علم العلامات) لعبد السلام المسدي الأكثر دلالة على المفهوم الغربي.[28]

حيث نجد تداول استعمال مصطلح السيميائية عند العرب المحدثين ومنه يمكن القول إن السيميائية «ظلت عند الإغريق والعرب القدامى والمحدثين والأوربيين مختلطة المفاهيم غير محددة الحقول حتى جاء الرائدان الفعليان لها وهما: الأمريكي "شارل سندرس بورس" (1839- 1914) والسويسري "دي سوسير" (1857- 1913)»[29]، ومنه كيف كانت بداية ظهور مصطلح السيمياء عند الغربيين، وهل نقول السيميولوجيا أو السيميائية؟

2. السيميولوجيا أو السيميائية:

لقد مرت السيميائية عبر مراحل في تطورها العلمي حيث «يعود تاريخ السيميائيات إلى ألفي سنة مضت كما يقول "أمبرتو إيكو"الذي يتكلم عن السيميائيات القديمة على النحو التالي: إن الرواقيين (stoiciens) هم أول من قال بأن للعلامة (signe) دالا ومدلولا (signifiant- signifie) وارتكزت السيميائيات المعاصرة على اكتشافاتهم الأولى وعندما أقول بدراسة العلامة- يقول إيكو- فإني أقصد كل أنواع العلامات وكل أنواع السيميائيات أي ليس العلامة اللغوية فقط، وإنما أيضا العلامة المنتشرة في شتى مناحي الحياة الاجتماعية، فاللباس ونظام الأزياء والموضة السائدة في مجتمع ما تشكل علامات وأنظمة تختلف من مجتمع إلى آخر مثل: آداب التحية في اليابان، علاقات الزواج وتقاليده، نظام المطبخ وإشارات المرور على هذا يشكل علامات وإشارات ودلالات...».(30)

فيشير أمبيرتو إيكو إلى أن العلامة لا تتوقف دراستها على الجانب اللغوي فقط بل حتى غير اللغوي في حياتنا اليومية فالعلامة منتشرة باختلاف المجتمعات والثقافات التي تحمل إشارات دالة، وبذلك «فإن العلامات تمثل نموذجا خاصا من الإشارات يجب تمييزه من سائر الأنظمة السيميائية، فالعلامة تتضمن دالا له مدلوله مثلها في ذلك مثل أي نموذج من الإشارات إلا أن العلامات على عكس الإشارات الأخرى، لا تستطيع أن تنتظم في بناء سيميائي جديد حتى لو كانت تنتمي إلى نظام أوسع من الإشارات التي يتم انتقاؤها بحرية...».(31)

وإذا أردنا أن نضبط مصطلح (السيميائية) فإننا نقف أمام اختلاف المصطلحات التي تعود إلى إشكالية الترجمة وذلك لمحاولته الإقتراب من المعنى، وما قد تعود إلى وجود مصطلحات متباينة لاختلاف الإقليم إذ نجد تمسك الباحث بمصطلح سيميولوجيا وآخر حول مصطلح السيموطيقا، فهل هناك اختلاف بين هذه المصطلحات أم أنها تدور حول علم واحد يهتم بدراسة الدلائل والكشف عن المعنى؟.

يعود مصطلح (السيميولوجيا) إلى الأصل اليوناني (sémion) الذي يعني علامة (logos) الذي يعني الخطاب، والذي نجده مستعملا في كلمات مثل: (sociologie)،

علم الاجتماع (théologie) علم الأديان (biologie) علم الأحياء...»[32]، ولقد ظهر مصطلح السيميائية (sémiologie) أو (sémeilogie)أولا سنة (1752م) في مجال الطب العلاجي أو الطب النفسي وهو دراسة علامات المرضى وأعراض الموت الجسدية واللفظية ومازال حتى يومنا هذا مادة تدرس في مجال الطب»[33]، وبذلك يعتبر مصطلح السيميولوجيا «الذي يحمل مفهوما جديدا يشكل قسما من الطب إذ يدرس أعراض الأمراض ومرادفه (symptomatologie)».[34]

ويتضح بذلك «أنه إذا كانت السيميولوجيا الطبية تتمتع بنوع من الأسبقية التاريخية بهذا المعنى فقد ظهرت كلمة (sémiotique) للمرة الأولى في القرن السادس عشر (ق16) فإنها تنضوي انضواء مشروعا تحت السيميولوجيا العامة»[35]،إذ كان استعمال السيميولوجيا في المجال الطبي ثم انزلقت الكلمة من هذا المجال، و«تسربت منه لاحقا، هكذا ففي تصنيفه للمعارف، يقابل الفيلسوف الانجليزي لوك (sémeiotique) بالفيزياء والممارسة وتغطي هذه المصطلحات العلوم الأخرى، والأخلاق ونشير أيضا إلى أن السيميائية حملت معنى عسكريا».[36]

فمفهوم السيمياء كان ضمن مختلف المجالات والميادين.وفي بداية القرن التاسع عشر (ق19) ظهر عمل لغوي للعالم السويدي (AdolfNarren) (1854- 1925) بعنوان "لغتنا" خصص قسما كبيرا منه لدراسة المعنى مستخدما المصطلح (semiology).[37]

ومنه نلحظ اتساع استعمال مصطلح (sémiotique)في مختلف المجالات إلا أنه «لا ينبغي أن يقع التباس بخصوص الدلالية (sémantique)، والسيميائية (sémiotique) إذ أن هذا المصطلح الجديد يشير في البداية إلى المادة التي تعني بمعنى الكلمات وقد أضحى ينطبق على كل السيميائيات، ولكن من جهة ترتكز على معنى العلامات.[38]

يتم «استعمال اللفظين سيميولوجيا وسيميائيات في العديد من المواقف بدون تمييز غير أن اللجنة الدولية للسيميائيات في جانفي (1969)، قبلت مصطلح (sémiotique) باعتباره يغطي معنى اللفظين دون أن تلغي استعمال سيميولوجيا (sémiologie)، وغالبا ما يستعمل في فرنسا مصطلح السيميائيات بمعنى السيميائيات العامة على السيميائيات

الخاصة مثلا: سيميولوجيا الصورة باعتبارها نظرية دلالة الصورة وتحيل في الوقت نفسه على تطبيقاتها سيميولوجيا الصورة كتحليل لوثائق تستعمل وسائل السيميائيات».[39]

وعلى هذا الأساس تتمظهر الحدود بين السيميائية والسيميولوجيا كما في التصريح الذي أدلى به "غريماس" في جوان (1974) "لروجي بول دروا" في صفحة خصصتها جريدة "لومند" (لعلم الأدلة) يقول: «أعتقد أنه لا يجب أن نولي أهمية للنزاع حول الكلمات في الوقت الذي تنتظرنا فيه أشياء كثيرة، عندما تعلق الأمر منذ ست سنوات (في سنة 1968) بإنشاء جمعية دولية كان يجب أن نختار بين المصطلحين تحت تأثير "جاكبسون" وبالاتفاق مع "ليفي ستراوس"، و"بنفنست"، و"بارت"، وأنا شخصيا وقع الاختيار على السيميائية غير أن مصطلح السيميولوجية جذور عميقة في فرنسا مما أدى إلى الاحتفاظ بالتسميتين، واليوم لنا انطباع بأن الأمر يتعلق بشيئين وهذا بطبيعة الحال خطأ بناء على نصيحة "يلمسليف" يمكن أن نفهم من السيميائيات الأبحاث الخصوصية المتعلقة بالمجالات الخصوصية، وتكون السيميولوجية النظرية العامة لكل هذه السيميائيات».[40]

وبذلك يمكن القول إن السيميولوجيا أو السيميائيات تطمح إلى أن «تشكل علما للدلالة يهدف إلى فهم سيرورات إنتاج المعنى، من منظور تزامني، وتبدو مثل ميتا- لغة تحددها طريقتها أكثر من موضوعها، لأنه يفترض في كل واقعة أو ظاهرة أن تكون قابلة لنعتبرها قادرة على الاشتغال كتشكيل دال، وأن ننظر إليها إذن من منظور سيميائي، إن السيميائيات هي أساسا في مستواها الأعلى متعددة الاختصاصات على اعتبار أن حقلها يعنى بفهم ظواهر متعلقة بإنتاج المعنى في أبعاده الإدراكية والاجتماعية والتواصلية، إنها مجال بحث أكثر منها اختصاص في حد ذاته له منهجيته الموحدة وموضوعه المحدد».[41]

ويبقى المفهوم العام للسيميائية هو البحث عن المعنى في الدراسات اللغوية أو غير اللغوية ويبقى مصطلح السيميائية في اللغة العربية مقارب لمعنى مصطلح (semiotique) في اللغة الأجنبية وذلك لكثرة استعماله وتداوله سواء في الدراسات العربية أو في الدراسات الغربية خاصة بعد ظهور مدرسة باريس السيميائية السرديةلغريماس حيث أخذ

استعمال مصطلح السيميائية في اتساع لدى الأبحاث والدراسات لمدرسة باريس مثل عنوان كتاب لغريماس وكوتيس Dictionaries raisonné de la simiotique (du sens ll ,essais وكتاب لغريماس بعنوان theorie du longage) (semiotiqueومنه فقد شاع استخدام مصطلح السيميائية (semiotique)

في كثير من الدراسات لهذه المدرسة وغيرها. وبذلك حاولنا ضبط مصطلح السيمياء وتحديد ملامح التغيير وكذا التداخل بين المفاهيم بين الفكر العربي والفكر الغربي، حيث وجدنا أن العرب القدامى قد تكلموا وأفاضوا الحديث عن العلامة ودلالة الكلم في السياق، والوجود والمنطق وفي ثنايا العلوم المختلفة إلا أنهم لم يحددوا السيمياء كإجراء نقدي في دراسة النصوص ولا التلميح حول آليات التحليل السيميائي وعليه تبقى دراساتهم المتناثرة في التراث العربي القديم البذور الأولى لهذا العلم الجديد، وأما العرب المحدثين فقد وجدوا إشكالية في تلقي المصطلح الغربي بين السيميولوجيا أو السيميائية، فعرف المصطلح تعددية باختلاف ترجمة المنظرين ويبقى الفكر الغربي منشطرا نحو اتجاهين فهناك من يميل إلى تصور "بورس" لمصطلح (sémiotique) وهناك من يميل إلى تصور "دي سوسير" لمصطلح (sémiologie).إلا أن الدراسات الغربية بعد بورس ودي سوسير تمركزت حول مصطلح السيميائية)(semiotiqueوذلك بعد ظهور تحول في الدراسات السميائية بعد ميلاد مدرسة باريس السيميائية السردية لغريماس.

الهوامش و المراجـــع

([1])-ابرير بشير، علم المصطلح وممارسة البحث في اللغة والأدب، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد2، 2005، ص266.

([2])-فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص29.

([3])-المرجع نفسه، ص ن.

([4])-ابن منظور، لسان العرب، مادة (س، و، م) المجلد 3، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص372.

([5])-سورة الفتح/ الآية: (29).

([6])-سورة البقرة/ الآية: (273).

([7])-ابن منظور، لسان العرب، ص372.

([8])-فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص30.

*صامت consonne: (c)

صائت voyelle: (v)

([9])-عبد الجليل مرتاض، دراسة سيميائية في الرواية والتراث، منشورات ثالة، الجزائر، دط، 2005، ص11.

([10])-ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

([11])-أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، القاهرة، ط6، 2006، ص20.

([12])-ينظر: المرجع نفسه، ص20، 21.

([13])-المرجع نفسه، ص21.

([14])- آن إينو وآخرون، السيميائية الأصول والقواعد والتاريخ، تر: رشيد بن مالك، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008، ص28، 29.

([15])-فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص32، 33.

([16])-أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص21.

([17])-ينظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص33، 34.

([18])-سعيد بنكراد، السيميائيات النشأة والموضوع، مجلة عالم الفكر، السيميائيات، إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 03، المجلد 35، مارس 2007، ص15.

([19])-حفناوي بعلي، التجربة العربية في مجال السيمياء مقارنة مع السميولوجيا الحديثة، محاضرات الملتقى الوطني الثاني (السيمياء والنص الأدبي)، دار الهدى للطباعة والنشر، ميلة، الجزائر/منشورات جامعة محمد خيضر، بسكرة، 16/15 أفريل 2002، ص158.

([20])-فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص34.

([21])-المرجع نفسه، ص35.

([22])-عبد الله محمد الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية قراءة- نقدية لنموذج معاصر- الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1998، ص46، 47.

([23])-حفناوي بعلي، التجربة العربية في مجال السيمياء، دراسة مقارنة مع السيميولوجيا، ص159.

([24])-فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص11.

([25])-المرجع نفسه، ص13.

([26])-ينظر: عبد الله بوخلخال، مصطلح السيميائية (sémiotique) و(sémiologie) في البحث اللساني العربي الحديث، النشأة والمفهوم والتعريب (السيميائية والنص الأدبي) أعمال ملتقى عنابة، باجي مختار، 15- 17 ماي، الجزائر، 1995، ص75.

([27])-فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص14.

([28])-ينظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص15، 16.

([29])-ينظر: آن إينو وآخرون، السميائية أصولها وقواعدها، ص30.

([30])-ميشال آريفيه وآخرون، السيميائية أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، د ط، الجزائر، 2002، ص21.

([31])-فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، دراسة ونصوص، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص217.

([32])-برنار توسان، ما هي السيميولوجيا؟، ترجمة: محمد نظيف، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان/ الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص9.

([33])-عبد الله بوخلخال، مصطلح السيميائية (sémiotique) و(sémiologie) في البحث اللساني العربي الحديث، النشأة والمفهوم والتعريب، ص75.

([34])-جون ماري كليكنبارغ، السيميولوجيا أو السيميائية؟ الموضوعات والأهداف، تر: رشيد بن مالك، مجلة بحوث سيميائية، ع3/ 2004، ص22.

([35])-المرجع نفسه، ص ن.

([36])-المرجع نفسه، ص23.

([37])-ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص23.

([38])-ينظر: جون ماري كليكنبارغ، السيميولوجيا أو السيميائية؟ الموضوعات والأهداف، ص23.

([39])-ينظر: جون كلود دومينجور، المقاربة السيميولوجية، تر: جمال بلعربي، مجلة (بحوث سيميائية) العددان، (3و4)، الجزائر، جوان، 2007، ص40.

([40])-ينظر: رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، (عربي، إنجليزي، فرنسي)، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص184، 185.

([41])- جان كلود دو مينجور، المقاربة السيميولوجية، تر: جمال بلعربي، ص45، 46.